م 1

المجتمع و الدولة القرطاجية

أ- المجتمع القرطاجي:

كانت البلاد التونسية كما تؤكده المخلفات الأثرية ذات تواجد بشري ملحوظ منذ العصور الحجرية، خاصة في النواحي الساحلية، وازداد الحال في لعصر التاريخي ، فكان أول سكان الناحية البربر قد انتجعوا كثيرا من النواحي الجنوبية له، وتعاطوا الزراعة في الشمال كما عنوا بتربية المواشي في حلقات قبلية متناثرة ، كما عرفوا بعض الصناعات الحرفية. ثم ظهر الفينيقيون وأسسوا مدنهم الثابتة حوالي القرن 12ق.م ، و كانت قرطاجة قد تميزت عن غيرها من المدن الفينيقية بأصولها الاجتماعية الأرستقراطية الصورية، النازحة مع الأميرة عليسة ، فهي في هذا تتفوق اجتماعيا على بقية الحواضر.

و ترجع أصولها الجنسية النسبية إلى الفرع الفينيقي العربي القديم ،وهو فرع سامي يرجع إلى النسب الكنعاني اليماني، وقد أثبتت دراسة لغة الفينيقيين وديانتهم هذا التصنيف العرقي أكثر مما أثبتته الأنتروبولوجيا، فقد عثر في قبور القرطاجيين على بعض الجماجم لنماذج بشرية متنوعة، وهي لا تنتسب للعرق السامي إلا بصورة استثنائية، وترجع عادة إلى أجناس مختلطة. كما تؤكد التواريخ المكتوبة أن الذي أسس قرطاجة هم الصوريون، وانظم إليهم قبرصيون، وهذا أيضا يبرز التنوع الجنسي لسكان قرطاجة، إذ هم لم يتحرجوا من الاقتران بنساء الأجناس الأخرى، ولهذا قد جمعهم الانتساب بحضارة سامية بلغتها المتميزة ودينها السامي أكثر مما جمعتهم خصوصيات العرق والجنس.

أما من ناحية ملامح هذا المجتمع القرطاجي ، فقد كانت النقائش أحسن فائدة في وصفه، وقد أمدتنا رواية التأسيس بالوصف الصريح للطبيعة الأرستقراطية (الحاكمة و الكهنوتية) لهذا المجتمع، و يرى ل.م.قونتر(L.M.gunter) في هذا مشابهة للمدن الإرغريقية، فهي أيضا قامت على عاتق أرستقراطية تجارية قوية، ذات نخبة سياسية مسيرة ،دفعتها حركيتها الخاصة نحو التجارة البحرية والانخراط في علاقات خارجية للدفاع عن مصالحها. وقد تضخمت هذه الفئة بقرطاجة خاصة بعد الهجرات الصورية.

كما يبدو أن هذه الأسر قد حافظت على روابطها الأرستقراطية النسبية، نجد ذلك في تعداد أجدادهم، كنقشية جنائزية ورد فيها: "قبر بت بعل رب الكهنة بنت عبد ملقرت الرب بن ماجون بن بدعشترت السبط بن أدن بعل السبط بن عزملك السبط ". فيظهر هنا الاهتمام النسبي ذي الطابع السامي. كما حافظت على ألقابها الأرستقراطية كلقب "رب" الدال على إحدى الشرائح العليا في المجتمع البوني.

ومنها أيضا لقب "الصّغار" في سردينيا وهم الأحرار ممن لا يتمتعون بالحقوق السياسية وامتيازات الأرستقراطية ذات الأصل الفينيقي، كما وجد بـ"كالياري" (cagliari) الصيغة "الكبار" الممثلة للطبقة العليا في المجتمع، هذا ما يؤكد الفرضية القائلة بأن المواطنة كانت حكرا على الأحرار من القرطاجيين وغيرهم ذوي الأصول الفينيقية.

و اشتمل هذا المجتمع على فئة الأحرار الممثلة بالتجار والحرفيين والمالكين العقاريين الزراعيين الصغار، وأيضا يد عاملة حرة في الميدان الفلاحي. وعرفوا فئة ثالثة يمكن تسميتهم "بالأحرار الخاضعين"، أي خاضعين للإدارة القرطاجية وهم أولئك المنفيون من بلادهم من شرقيين و يونان وملطيين وصقليين الذين أصبحوا جزءا من المجتمع القرطاجي، وقد وطّدت أرستقراطيتهم العلاقة مع الأرستقراطية القرطاجية.

كما وجدت فئة العبيد ذات الدور الاقتصادي الخدمي، وكانوا كثيرين غالبيتهم من أصل أفريقي ،يلقون المعاملة الحسنة ولهم حق الزواج وقد أعتقوا مرارا. وكان عددهم كبيرا في المجال الزراعي، خاصة بداية من أواخر القرن 4ق.م، ويؤكد عددهم هذا مشاركتهم في المحاولة الانقلابية "لحانون" الأكبر، وكانوا عشرون ألفا. وقد جلبوا من الحروب وأعمال القرصنة أو من سوق العبيد (جزر البليار)، وأرست لهم قرطاجة أسسا قانونية خاصة؛ فسمحوا لهم شراء حريتهم والزواج، بل وأسسوا لهم لجنة في صلب مجلس الشعب لإثبات إقرارات، ففاقوا بذلك روما التي تخلفت عن هذا الأمر التنظيمي الحقوقي.

وكانت المرأة تتمتع باستقلال كبير، وغالبا ما يمثلن على النذور الجنائزية، ويرتقين إلى أرقى الوظائف الدينية، وعرف لبعضهن دورا أساسيا، على أن الظاهر أن تعدد الزوجات لم يعرف طريقه للقرطاجيين.

أما عن اللباس القرطاجي فمصادرنا فيه هي الرسوم الفرعونية، يظهر فيها الرجال النحفاء والعصبيون يرتدون ثوبا طويلا فاقع الألوان، مزينا بخطوط من التطريز، ومثله كان لباس القرطاجيين ينزل إلى الأقدام وهو فضفاض، يربط عند الخصر بحزام مطرز، وتبدو أكمامه واسعة وقصيرة، وفي السفر والطقس البارد يرتدي القرطاجي معطفا يكبل بأبازيم شبيهة بالدبابيس، كما ترتدي النساء ثيابا قصيرة الأكمام مشدودة عند الخصر، ووشاحا ذا أثناء يهبط حتى الأقدام تقريبا، كما لبسن النعال، وغالبا ما يرخي الرجال لحاهم، ويبقى شعرهم قصيرا، يغطون رؤوسهم بقبعة مخروطية أو بقلنسوة تشبه

الطربوش التركي والشاشية التونسية. كما تنسدل شعور النساء طويلة ، ويلبسن حلي كثيرة، ويتبرجن دون اعتدال.

ونعلم عن سكن القرطاجيين أن مدنهم كانت تتألق من منازل عالية من عدة طبقات، مصطفة من الساحة العامة حتى القلعة، تفصل بينها الشوارع الضيقة، وهذا يشبه كثيرا العمارة العربية اليمنية القديمة، وكان للأستقراطية مساكن رحبة خارج المدينة تحيط بها البساتين الكبيرة. وزعم "وارجمنتون" أنه رغم اشتهار قرطاجة بالغنى فإن الآثار لم تطهر لنا شيئا من ذلك، واشتهرت المدينة بأسوارها الهائلة الحجم، ووصل طولها الكلي حوالي 22 ميلا، وكان ارتفاع القطاع الحاسم بها أربعين قدما وسمكه ثلاثين قدما. وكانت القلعة الداخلية محصنة بصور طوله حوالي ميلين، يطوق التل المعروف باسم بيرصة (byrca) وهو أقدم جزء بالمدينة، وكان بين الميناء وبيرصة ساحة عامة مكشوفة إلا أنها يبدو لم تخطط تخطيطا منتظما، ولا حملت مظاهر الفخامة كمثيلاتها الإغريقية.

أما المعابد فرغم تعددها إلا أنه يظهر أنها لم تكن فخمة، فمعظم الأدلة تبين أن القرطاجيين كانوا محافظين أساسا في مسائل العقيدة، وظلوا مخلصين طويلا لفكرة بساطة الأماكن المقدسة الخالية من أي أبنية وأنصاب فخمة". وقد عظمت المدينة بسكانها حتى بلغ بهم "سترابون" 700 ألف نفس، والأكثر قبولا هو 400 ألف، مما يجعل عدد سكانها مساويا لعدد سكان أثينا في القرن 5 ق.م.

ولقد تأثر المجتمع القرطاجي كغيره بالأهالي الوافدين وجيرانه من الدول الأخرى، والتأثير البربري بقرطاجة واضح. وورد التأثير المصري بأسماء مصرية خاصة في الميدان الفني والحرفي، ولعب التأثير الإغريقي دوره في النشاط العلمي والتعليمي، إذ كانت اللغة الإغريقية كثيرة الانتشار في الأواسط المتعلمة، وقوي هذا التأثير بكثرة الزيجات خاصة مع إغريق صقلية. وقد ذكر ديودور الصقلي تبني قرطاجة عبادة الإلهة دميتر وكوري الإغريقيتين سنة 396 ق.م، وكلفت كهنة إغريق بالإشراف على طقوسها الدينية ورعاية معبدها، وتدل النقائش على وجود إغريق بقرطاجة متخصصين في صناعة التماثيل والتحف وغيرها.

لقد كانت قرطاجة حضارة سامية محافظة، ارتقت بمجمعتها إلى مصاف الحضارات العظيمة، ورغم اندثار معالمها فقد بقيت في ذاكرة التاريخ كأعظم المجتمعات التي راضت التجارة في عصرها.

بـ الدولة القرطاجية:

أدار المجتمع القرطاجي نظام سياسي محكم تطور عبر الزمن، وقد أمدتها الثوراة عن أصله الفينيقي في تعلق "بصور"، إذ تمتعت هذه المدينة كالمدن الفينيقية الأخرى باستقلال ذاتي كبير (المدينة

الدولة)، وبحكم ذاتي تجسد في ملكية وراثية، وعند تبدل السلالة الحاكمة كان الملك يختار من اعرق الأسر التي ترجع إلى أصل إلهي. ويبدو أن قرطاجة حملت نفس هذه السمات في بدايتها، وقد سمي لنا عدد من رجالها القدماء بالملوك، ويحتمل أن الكتاب القدماء في تسمية هؤلاء بذلك قد أخذوا في الاعتبار سلطاتهم الدينية والقضائية فضلا على السياسية والعسكرية –وقيل أن هذا المنصب قد بدأ في قرطاجة انتخابيا وليس وراثيا، إلى أن تمكنت أسرة آل ماغون من توليه لفترات طويلة خلال القرنين 5و6 ق.م .

وفي الجملة يقسم النظام السياسي القرطاجي على ثلاث مراحل هي:

1ـ مرحلة الملكية (**ق9 إلى ق 5 ق.م**): هي استمرار للنظام الفينيقي الشرقي، على أن الملكية كانت انتخابية يختار فيها الملك من رجال الطبقة الأرستقراطية من يخلفه، وكان فكر هذا النظام السياسي يتفق مع الهدف الفينيقي الأول وهو الاستحواذ السلمي على الثروة الاقتصادية، حتى أن العمليات السياسية والحربية القرطاجية كانت تهدف لتدعيم الجانب الاقتصادي، بل كان منهجها في الإدارة اقتصاديا تجاريا، لذا كان أصحاب الثروة خاصة التجار في المكان الأول في الساحة السياسية، مما شهد ظهور أسر ارستقراطية تجارية قوية كآل ماغون.

على أن بعض المؤرخين وأولهم "ميلتزير" (Meltzer) شككوا في دخول قرطاجة مرحلة الملكية أصلا ، رأوا أن مقابلة مجمل المصادر واستنتاجات النقائش منسجمة في وجود ملكية في قرطاجة، وإن قراءة لاستعمالات الإغريق واللاتين في وصف الوظيفة العليا في قرطاجة لا تعني شيئا، فأرسطو يستعمل صيغة الملوك (basileis)، وهذا في فكره لفظ مثنى لا جمعي، والمصادر اللاتينية استعملت بصفة واسعة الاصطلاح اللاتيني الدال على الملكية في صيغة المفرد و الجمع (reges-rex)، مما يدل على أن المقصود وصف هؤلاء بالملوك لا أنهم ملوك على الحقيقة بدليل تعددهم.

2ـ **مرحلة الجمهورية** (**ق5إلى ق3ق.م**): تناقصت قوة الملوك أثناء القرن 5ق.م، بسبب تغير طارئ في النظام القرطاجي ، فقد تمخضت التوسعات القرطاجية الداخلية بظهور فئة ملاك الأراضي الزراعية ، الذين سينافسون الأرستقراطية التجارية على الثروة و السيادة السياسية. وقد استطاعت افتكاك مقاليد الحكم منتصف القــرن 5ق.م، و تحويل الدولة إلى نظام شبيه بالنظام الجمهوري، حيث ساهموا في تقوية مجلس الشيوخ على حساب سلطة الملك؛ فتمخض هذا على ظهور "الشفطان-السبطان" (Sufetes) وهي سلطة تعادل الرقباء (السناسرة) عند الرومان والقضاة عند بني إسرائيل، قيل ظهرا

في القرن 3ق.م وقيل 4ق.م وكانا اثنين وربما أكثر، ينتخبان لمدة سنة. كانت صلاحيتهما رئاسة مجلس الشيوخ ومده بجدول أعماله، ويلجئون لمجلس الشعب في حالة انعدام الاتفاق بينهما وبين مجلس الشيوخ. و لا نملك معطيات حول قيامها بقيادة الجيش، ولا في توزيع المهام بينهما، أو قيامها بوظائف دينية، ولعلهما مارسا القضاء ورئاسة المجالس القضائية.

و في هذه المرحلة ازدادت قوة الأرستقراطية ، فأصبح لهم إلى جانب عضويتهم الجماعية في مجلس الشيوخ مجلسان آخران منتخبان هما : مجلس المائة و الأربعة و مجلس الثلاثين ، وهي مجالس قضائية.

3ـ مرحلة الجمهورية الجديدة (ق3 إلى ق2ق.م): وهي الفترة التي تركزت فيها السيادة السياسية بيد أسرة آل برقة، التي أصبحت سلطتها تعادل سلطة مجلس الشيوخ والمجالس الأخرى، في غير صفة الدكتاتورية قد انتقلت فيها السياسة العامة من الطابع التجاري المحافظ إلى الطابع الاقتصادي التوسعي، على أن قرطاجة لم تعرف طوال تاريخها الطويل انقلابات سياسية عسكرية إلا نادرا، خلافا للإغريق و الرومان، ربما بسبب أن جهازها للرقابة والسيطرة كان فعلا، خاصة في جانب قوة القضاء القرطاجي وصرامته.

- مِؤسساتها السياسية:

أـمجلس الشيوخ : ظهر بقرطاجة منذ القرن 6ق.م مجلسا للشيوخ يحد من سلطة الملوك، وأقرب تسمياته "كبار قرطاجة" (seniores)، ويرجح "ملتزر" أنه كان مؤلفا من 300 عضو من بين الأرستقراطية الغنية، و قد أثنى أرسطو على كيفية اختيار شيوخه وفضلها على طريقة إسبرطا الإغريقية. و قد كانت له صلاحيات واسعة خاصة فيما يتعلق باختيار الحرب والسلم، وإدارة السياسة الخارجية للدولة.

و كان يجتمع في قصر يقع في الساحة الكبيرة و يعقد أحيانا بعض جلساته في معبد أشمون، و قد كان مؤلفا من مجموعة من اللجان؛ فقد ذكر أرسطو اللجان الخماسية (pentarchies) التي كانت تمارس سلطاتها مدى الحياة، ولها صلاحيات واسعة كاختيار الحكام المائة، ومنها مجلس القيادة (consilum principum) ذكره تيتوس ليفيوس و لعله نفسه الأول، ومنها القادة الثلاثون من شيوخ قرطاجة، وذكرت النقائش لجنة العشرة المتولية الإشراف على المعابد ، ولجنة الثلاثين المشرفة على الضرائب.

بـ مجلس الشعب : وهو مؤسسة معروفة في الحضارات السامية تتخذ تسمية "شعب المدينة"، وقد ذكرتها النقائش في العديد من المدن البونية، يؤرخ لوجودها منذ منتصف القرن 6ق.م، وقد استطاعت تغيير التوازن المؤسساتي لصالحها انطلاقا من الثلث الأخير للقرن 3 ق.م، بظهور قوة آل برقة، التي كانت حليفتها فيما يبدو. ويجمع المؤلفون القدامى على أهميتها في الحياة العامة بقرطاجة، وذكر أرسطو صلاحياتها، ومنها المحاكمة بين مجلس الشيوخ والسبطان، وتحمل إليها تدابير السلطة التي تبدي رأيها فيها. وقد كان متاحا لأي مواطن أن يعارضها، وهو ما لا أثر له في بقية الدساتير كما يقول أرسطو، كما كان لها حق تعيين القادة العسكريين، ربما بعد عرض مجلس الشيوخ لمرشحيه لهذا المنصب. وقد قسم لنا بولبيوس هذا النظام الإداري السياسي حيث جعل مجلس الشعب ممثلا للعنصر الديمقراطي الشعبي، ومجلس الشيوخ ممثلا للعنصر الأرستقراطي، وسلطة السبطين ممثلة للملكية.

جـ محكمة المائة وأربعة : وهي أبرز هيئة قضائية، ذكر "يوستنيوس" أنها ظهرت لما تناما نفوذ الأسرة الماغونية، وجمعها بين السلطة السياسية والقضائية؛ فاضطر مجلس الشيوخ إلى إنشاء هذه الهيئة، وإلزام العسكريين تجاهها بتقديم التقارير عن حملاتهم، لإلزامهم احترام سلطة الدولة. و يرى غزال أنها ظهرت في منتصف القرن 5ق.م ، وكان هذا المجلس يختار من قبل مجلس الشيوخ، ولعله انتقل من شكل المحاكم العليا إلى شكل المحاكم الاختصاصية، الناظرة في الأحوال القضائية العامة والخاصة.

إن نظام الدولة القرطاجية السياسي والدستوري قد لقي إطراءا كبيرا من الفلاسفة القدماء، وعلى رأسهم أرسطو، الذي قال :"يعرف القرطاجيون بأنهم محكومون بصفة جيدة، ودستورهم في جوانب عديدة أفضل مما لدى غيرهم"، و مع هذا لم يتردد "ألفرد كروازي" (Croiset) في كتابه الديمقراطيات القديمة (1911م) في وصف هذا النظام الديمقراطي السامي بالهامشية المعزولة عن المجال الإغريقي والروماني بعدا عن النصفة والموضوعية في الحكم التي وجدت عند قدماء الفلاسفة والمؤرخين.

دـ نظام المدن والمستعمرات: تألفت الإمبراطورية القرطاجية من مجموعة كبيرة من المدن والمستعمرات، السائرة على نظام دولة المدينة، أطلق علي سكانها المؤرخون القدماء اسم "الفينيقيون الليبيون". كانت لهذه المدن إدارة محلية ونظام حكم مشابهة للذي بقرطاجة، تدفع الرسوم على الواردات والصادرات إلى قرطاجة، وتجند قرطاجة أحيانا القوات منها، وقد كانت هذه المستعمرات احترفت التجارة البحرية وشاركت قرطاجة فيها، إلا أنه بعد سنة 348 ق.م حرّمت عليها المدينة الأم التجارة

مع أي أحد عداها. واختصت صقلية بحكم مجاورتها للإغريق بأن سمح لرعاياها القرطاجيين إنشاء مؤسساتهم الخاصة، بل وإصدار عملتهم ابتداءا من القرن 5 ق.م في الوقت الذي لم تصدر فيه بعد قرطاجة عملتها، كما لم تفرض على تجارتهم أي قيود، في حين كانت ضريبته قدرها عشر الإنتاج.

هـ الجيش القرطاجي:

لم يدافع عن قرطاجة طوال القرون الأولى إلا أبناؤها أو حلفاؤها؛ فهي لم تخض أية حرب بعيدة عن مجالها المغربي، إلى أن قام آل ماغون بتنظيم المملكة في القرن 5 ق.م، فأسسوا الجيش في طفرة التوسع مجندين المرتزقة والأهالي الخاضعين؛ لكنهم أسسوا فرقة خيالة تضم صفوة الشباب الأرستقراطي القرطاجي. مع هذا بقي الجيش غير نظامي لا يتجاوز المائة ألف إلا نادرا، فأعوزه لذلك الكثير من التمرين وتجارب الحرب، خاصة وأن مجلس الشيوخ القرطاجي نزع لحل مشاكله الخارجية بالتوافق الدبلوماسي أو التنازل المالي، نتاجا لظاهرة غلبة العقلية التجارية على الساحة السياسية والقتالية، لكن يظهر نوع من التطور في نظامه هذا في القرن 4 أو 3 ق.م حيث فصلت قيادة الجيش عن الوظائف الأخرى، مع بقاء القادة ينتخبون في حالة الضرورة، ولحملات محددة لمدة عام، وبقاء هؤلاء معلقين بنجاحاتهم العسكرية.

وقد كان هذا الجيش مؤلفا مـن: المشاة الحاملين للسلاح الثقيل، وعليهم السيوف والرماح القصيرة وبعضهم يحمل الحراب أو المقاليع يرشقون بها كرات من الفخار المشوي، وكان أكثرهم من المرتزقة وعُظمهم من البربر، إذ كان الليبيون مشاة خفيفي الحركة، ومنهم من الإسبان والغاليين والإيطاليين والإغريق. كلف هذا الاعتماد على المرتزقة كثيرا خزينة الدولة وله سلبيات كثيرة؛ فأدى إلى إضعاف الروح الوطنية للقرطاجيين وإبعادهم عن الجيش، وأضعف القوة العسكرية لضعف ولاء المرتزقة للوطن والنظام، وكان الاعتماد على القادة الإغريق جالبا للمشاكل لرغبتهم المفرطة في السيطرة، فضلا على أنهم كانوا مكلفين ماليا، ومزعزعين للاستقرار أثناء الأزمات. وأما الخيالة فقد ضم الجيش فريقا من شباب الأشراف، وإن كان أكثر الفرسان من النوميديين والموريين، وقد برز دورهم في الحروب خاصة في عهد هنبعل، حيث مثلوا ربع جيشه أثناء حربه الإيطالية.

وضم الجيش أيضا فرقة العربات التي استعملت إلى القرن 3 ق.م، حيث عوضها الفيلة التي بلغ عددها أحيانا المائة فيل في الصف، يقودها سائس ويتبعها جنود يعملون على تهييجها بوخزها وقرع الأجراس، لتكر على صفوف العدو فتسحقها، وقد كانت سلاحا قويا فعالا أثناء الحرب البونيقية؛ للخوف الشديد الذي كانت تحمله في قلوب المقاتلين الرومان.

كما ضم الجيش أيضا معدات الحصار من أبراج ومجانيق وعرادات وقادفات تقدف كرات من الحجر أو الحديد، وقد برع القرطاجيون في هذا السلاح لقدراتهم الخلاقة، وبرعوا في صناعة السفن، وسيأتي الكلام عليها.

وجملة القول أن نظام الدولة القرطاجية عبر أطواره كلها قد أظهر التميز الفينيقي في طرق التسيير والتنظيم الفعلي والنظري، مما أهلها أن تكون رائدة الحضارات في البحر المتوسط في عصوره القديمة.

انتهى